أهمية اللغة في الحفاظ على الأمن الفكري في عصر العولمة

أ.د. لحرش أسعد المحاسن

مقدمة:

ما من شك في أن أي نظام حضاري يعتمد في أفوله أو بقائه على مدى اهتمامه بمقوماته الأساسية، والتي كانت سببا في بزوغه، هذه المقومات التي تعد أرضية صلبة لإقامة أي مشروع نهضوي، وما من شك في أن هذه المقومات تنبني أساسا على المُعتقد والتاريخ...؛ وأداة الإفصاح عن هذا النهوض هي اللغة التي ينبغي أن تكون وسيلة ومُبتغى في ذات الوقت، وغير بعيد عن ذلك نجد اللغة العربية لغة القرآن الكريم وسنة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، وهي لغة العلوم خلال حقب زمنية طويلة، لكن اليوم أضحى الهدف وشغلنا الشاغل كيفية الحفاظ على هذه اللغة التي هي لغة أهل الجنة، والتي بُجلت لتكون لغة للرسالة الخاتمة والخالدة، كل هذا التحول الذي جعل اللغة تبحث عمن يحميها بعدما كانت هي من يحمينا ويحمي سائر العلوم والمعارف ويحمي مقومات هذه الأمة وتاريخها وهويتها.

هذا ما يجعلنا أمام ضرورة ملحة لتحقيق الأمن الفكري الذي لا يمكن أن يتحقق بدون اللغة، هذه اللغة التي أهانها أهلوها فأُهينوا، ولا يمكن بذلك الحديث مطلقا في ذلك لا عن التراث ولا عن الهوية ولا عن المُعتقد ولا أي شيء من ذلك دون الأخذ باللغة العربية.

وإذا كان هذا الأمر مُلحا فيما مضى فهو أشد إلحاحا اليوم أمام الانفتاح على العالم الخارجي خاصة أمام التحديات التي تفرضها العولمة اليوم، أمام المد المعلوماتي الأجنبي، وأمام الأساليب التقنية المعاصرة للاتصال التي ينبغي القول إزائها أننا لسنا في مستوى مواجهتها ومجابهتها بسبب الوهن الذي أصابنا وبالتالي حتما سنكون في حكم المتأثر لا المؤثر.

وإذا ما اطلعنا اليوم على الإنتاج العلمي الحقيقي بأي لغة أجنبية أخرى نجد أنفسنا أمام واقع مخجل لما نُسهم فيه بلغتنا وأمام زهد مبالغ فيه لا كما ولا نوعا، فإذا كانت اللغة العربية لغة القرآن الكريم حيث أكرمها الحق تبارك وتعالى، نجدها أضحت بسببنا حبيسة الرفوف والأدراج حيت أهناها فأُهنا، لأننا لسنا في مستوىً للحفاظ على هويتنا ولا أمننا الفكري الضائع، حيت يجعلنا هذا أمام جزم بأن اللغة العربية لم تعاني من شيء كمعاناتها منا، نحن الذين ندعي أننا من النُخب العلمية.

أهمية الدراسة :

تتضح أهمية الدارسة من خلال بيان :

- أهمية اللغة العربية في تحقيق المقومات الحضارية وفي إقامة أمن فكري، نتمكن من خلاله من الحفاظ على أصالتنا وعلى الموروث التاريخي لأمتنا.
- أهمية اللغة العربية ذاتها في إدارة العديد من الأزمات المعرفية وإشكالات الهوية، إذ باللغة العربية نتمكن من التعرف على تاريخنا، وعلى مقومات النهوض الحضاري لأمتنا.

الهدف من الدراسة :

تهدف الدراسة إلى الوقوف عند الأهمية التي حازتها اللغة العربية سالفا في الحضارة الإنسانية وفي نشر الوعي والفكر لدى الغرب وسائر الأمم.

كما تهدف الدراسة إلى بيان أهمية ما أسهم به العلماء والمفكرون العرب والمسلمون من خلال الأعمال العلمية والإبداعية باللغة العربية وبالترجمات من لغات أخرى إلى العربية ثم إلى لغات لاتينية.

ثم إن اللغة العربية في حد ذاتها ليست كباقي اللغات إذ هي أداة لإدارة ما نعاني منه من أزمات تتعلق بالهوية والانتماء، إذ أن المواطن العربي يعيش حالة من التيه، تجعله عاجزا حتى عن رسم الأهداف البسيطة في حياته.

منهج الدراسة :

تم الاعتماد على المنهج التحليلي الوصفي بتحليل أهمية اللغة في إدارة الأزمات المعرفية وتحقيق الأمن الفكري، ودورها في تكريس المعنى الحقيقي للهوية والانتماء، خاصة في ظل العديد من التطورات المعاصرة.

المبحث الأول : اللغة العربية وإدارة الأزمة المعرفية

من البديهي أن تعترض أية دولة أو أي نظام أو مجتمع العديد من الأزمات الأمنية التي قد تهدد كيانه وقوامه، وتعد الأزمات المعرفية من أخطر هذه الأزمات لأن المعرفة عصب حياة الفرد والمجتمع، ولا يمكن إطلاقا لدولة ما أو مجتمع أن يقوم على سوقه إلا إذا تحقق له الأمن المعرفي، كما أن العبء يقع في مواجهة وإدارة الأزمات المعرفية على الجامعات ومؤسسات التعليم العالي، والأزمة المعرفية يكون أكثر خطورة منها ما تعلق بهوية الإنسان من عقيدة وتاريخ ومواطنة وغيرها من الأبعاد الحضارية الأخرى.

الفرع الأول: مفهوم الأمن الفكري

يعد الأمن الفكري من أكبر المدلولات أهمية وهو مرتبط بحياة الإنسان، ولم يكن هنالك شيء أهم من الأمن قال الحق تبارك وتعالى « فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف» سورة قريش، الآية ٠٥.

وتتجلى سمات البعد الفكري للأمن في اصطلاح الأمن الفكري المرتبط بالحفاظ على الهوية الوطنية من المعتقدات والقيم والموروث الفكري والثقافي ومجابهة كل ما يمس بتلك الهوية من تبني أفكار هدامة أو متطرفة يكون لها تأثيرها على مناحي الحياة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. ١

وأمام مظاهر الثورة المعلوماتية التي جعلت القيود والحواجز كلها تُنض مما قد يقوض البناء الثقافي والحضاري لأمتنا، صار الأمن الفكري ضرورة ملحة، ويكون في ذات الاتجاه لزاما التعامل بحنكة مع ظاهرة الغزو الفكري بما يحفظ للأمة هويتها ومقوماتها الحضارية خاصة وأن لدينا ترسانة ضخمة من البرامج والمؤسسات التعليمية، ومن المسلم به في ذلك أن حماية الأوطان ليست مرتبطة بالحيز الجغرافي الإقليمي، بل إن أهم من ذلك هو الارتباط بهذا الحيز المكاني والزماني وفق مقتضيات المواطنة الصالحة المرتبطة بالانتماء التاريخي للتراث الحضاري .

ثم إن متطلبات الأمن الفكري لا تعني الانغلاق دون الاستفادة من الآخر بل يجب أن نستفيد منها وفق عدة منطلقات كما استفاد الغرب من موروثنا التاريخي لقرون من الزمن فليس عيبا الاستفادة من الثورة المعلوماتية، وكذا عدم الوقوف عند الحد الاستهلاكي لهذه التقانة والمعلوماتية فلابد من الخروج من مرحلة التلقي إلى مرحلة الإنتاج.

ويقوم الأمن على نظرية متكاملة وعلى بحوث مستمرة في المجالات المختلفة تحقيقا وتجسيدا لمقتضياته وبغية مجابهة الإجرام وأسبابه ودعائمه، حيث لا يمكن تصور مجرم بلا جريمة، ولا جريمة بدون مجرم فهما أمران متلازمان. ٢

وفي عصر التكنولوجيا لم يعد جهاز الأمن لوحده مسئولا عن طرح سياسة ما وإتباعها، إنما ذلك عمل مشترك ومتكامل مع كل الأجهزة والهيئات الأخرى كلٌ في حدود ما هو مخوّل له، وفي كل الأوضاع نجد أن هنالك مبادئ وأسس يجب إتباعها وهي:

- مبدأ العلمية: بمعنى الاعتماد دائما على المسائل العلمية استنادا على الخبرات والقدرات التقنية والعلمية والتخطيط المسبق، وهذا ما يفرض استخدام التقنيات المستحدثة.
- مبدأ مركزية التخطيط ولا مركزية التنفيذ: حتى في استعمال تقنيات الاتصال يعتمد على وضع خلية مركزية للقيادة ووحدات فرعية للتنسيق والتنفيذ المباشر من الأعوان.
- مبدأ الإلزامية والمرونة: أي ضرورة التقّيد بالتعليمات على مستوى الوحدات اللامركزية ويتم الاستعداد لأي ظرف طارئ بمسايرته والمرونة معه بإيجاد البدائل.
- مبدأ الواقعية: مدى التوافق بين الأساليب والتقنيات المستجدة مع الواقع الذي سيكون محل تطبيق وإدارة، خاصة في خضم ما يسمى اليوم بالجريمة المنظمة التي تعتمد على تشكيل هرمي لمجرمين محترفين يعملون وفق أسس معلوماتية حديثة

وكذا في خضم آفة الإرهاب الذي أصبح يستخدم العديد من الوسائل الفتاكة بالأفراد وبالمجتمعات.٣

٠١ / اللغة أهم مقومات الهوية: ٤

إن الهوية ببساطة هي ماهيتك، فإذا سألت شخصا ما «من أنت» ستنتظر أن يقول لك من هو إلا إذا كان هذا الشخص يعاني من الأنوميا Anomia –مرض يصيب الذاكرة ويؤدي لفقدان الشخص لذاته– وحينما نزور بعض الدول نطالب مرارا بإعطاء الهوية –البطاقة التعريفية–٥، ولكن إذا كان السؤال ممن يعرف المسؤول فإن التساؤل يفيد البحث عن شيء مكنون لا يتوقف عند حد الاسم والكنية، وبذلك فإن هنالك مظهران أساسيان للهوية، أولهما يتمثل في الاسم واللقب، وثانيهما يتعلق بأمر غير ملموس، ومركب من العديد من العناصر التاريخية والدينية والحضارية.

أما عن اللغة فهي ذات ارتباط وثيق بالهوية، وفي هذا نجد التمايز بين اللغة العربية وغيرها من اللغات، فإذا قلنا الاسبانية فهي تحيل إلى بلد معين، واللغة الإيطالية والفرنسية والانجليزية وغيرها، أما اللغة العربية فهي تتعدى حدود الدول وترجعنا إلى بعد إيديولوجي يوحي إلى العديد من الدلالات والمقومات الفكرية.

يقول سقراط في محاورة كراتيلوس لأفلاطون، إن غاية الكلمات تمييز الأشياء بعضها عن بعض، وتلقين بعضنا بعضا هذه الأشياء، فتمييز الأشياء يُقصد به التمثل، أما تلقين أحدنا الآخر هذه الأشياء فهو التواصل.٦

وقد تم تعريف الهوية في معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية بأنها «عملية تمييز الفرد لنفسه عن غيره»٧، ويذكر المفكر محمد عمارة في كتابه مخاطر العولمة على الهوية الثقافية» أن هوية الشيء هي ثوابته التي تتجدد وتفصح عن ذاتها دون أن تخلي مكانها لنقيضها طالما بقيت الذات على قيد الحياة «.٨

وتبرز الهوية الثقافية كأداة للتمييز بين مدلول نحن ومدلول هم ومبنى ذلك التباين الثقافي رغم وجود مرونة في مدلول هذه الهوية بغض النظر على أن الهوية تشهد تنوعات وتداولات متكررة وبذلك نجد أن الهوية «الحصيلة المشتركة من العقيدة الدينية واللغة والتراكم المعرفي وانتاجات العلم والفنون والآداب والتراث والقيم والتقاليد والعادات والأخلاق والتاريخ والوجدان ومعايير العقل والسلوك وغيرها من المقومات التي تتمايز في ظلها الأمم والمجتمعات».٩

ونجد أن العولمة هي اللاهوية تهدف إلى التغيير من الثوابت والمحتوى والإرث التاريخي والاستدراج إلى ثقافة غربية غريبة وبشعارات زائفة تحت غطاء العولمة، أي وكأن بهم يقولون لنكن عالما واحدا بثقافة واحدة وقوانين واحدة ولكن كل هذا لأجل الوقوع تحت الأسر وظهر ما كان مستترا فيصبح التغريب محلا عن العولمة.

مما تم تأكيده في العديد من الدراسات والأبحاث فإن الثورة التقنية لها تأثير على الهوية الثقافية وتؤدي إلى حدوث تغيرات في بناء المجتمع ووظائفه وشرائحه المختلفة وبخاصة شريحة الشباب، هذا ما يؤدي إلى حصول تغيرات وأبعاد جديدة في الهويات الثقافية العربية . ومن أبرز أسباب حصول العديد من الأزمات المعرفية المهددة للأمن الفكري:

- الفكر الوافد من خلال تقنيات الاتصال الحديثة١٠
- ضعف الوازع الديني١١
- القصور الإعلامي أو الدور السلبي الذي يقوم به١٢

٠٢ / المصادر الحقيقية للأزمات المعرفية

تجاوز صمويل هنتينغتون (أستاذ محاضر بجامعة هارفرد) فلسفة النهايات التي اكتملت عند فوكوياما المستشار الإستراتيجي والمخطط للسياسة الأمريكية الخارجية بحتمية الليبرالية كمصير للشعوب إلى حتمية صراع الحضارات التي هي آخر طور أو حلقة من حلقات سلسلة تطور الصراع١٣، ويرى في ذلك أن التصادم بين الحضارات سيتحقق لعدة أسباب أهمها الفروق الحضارية في إشارة إلى اللغة كأهم هذه الفروق.١٤

ونجد أنه كثيرا ما يعمد الليبيراليون للاختفاء وراء التكنولوجيا الحديثة لإخفاء المعضلات الاجتماعية أو الخيارات الحضارية محل الجدل والخلاف، وتعمد هذه التقنية إلى إغراق الناس في تساؤلات (كيف)، لكن تمنع خوضهم في تساؤلات لماذا؟

ويجد هنتنغتون أن ردود الفعل

العالمي ضد الغرب تتخذ أشكالا ثلاثة :

١/ إتباع مسار العزلة وعدم المشاركة في المجتمع العالمي.

٢/محاولة الانضمام إلى الغرب وتقبل قيمه ومؤسساته .

٣/ التحديث من دون التغريب أي محاولة التوازن انطلاقا من الشكل المحلي.١٥

وكان هنتنغتون قد خَلُص إلى نتيجة مفادها أن الصدام يحدث على مستويين، الأول جزئي ويتمثل في نزاعات خطوط التماس- اللغة، التاريخ، الدين- والثاني كلي يتمثل في التنافس العسكري والاقتصادي ومدى السيطرة على المؤسسات الدولية إضافة إلى ترويج القيم السياسية والحضارية الخاصة.١٦

ويشير هنتنغتون إلى أن التخلي عن اللغة الأم لدى العديد من الدول هو مؤشر على الضعف الداخلي وأن سيطرة اللغة الانجليزية دليل على الاكتساح الغربي والأمريكي للعالم، بدواع كثيرة على رأسها دعاية أن اللغة الانجليزية هي لغة العلوم ولغة التكنولوجيا.

أما المقال الذي نشرته الإيكونوميست للكاتب بيدهام يمثل جانبا آخرا١٧، إذ يوضح أن الشيء يكتمل بنقيضه فلا وجود لإشكالية السيطرة أو التحكم، وقد أكد قدرة تحالف وتآلف الإسلام والغرب على حل العديد من الإشكالات للوصول إلى خير للإنسانية كلها مُفنِّدا آراء هنتنغتون، وقد اختزل بيدهام الحضارات المؤهلة إلى ثلاث، الغرب في مواجهة العالم الإسلامي، وعالم الكونفوشيوسية ثم يبين أسباب استبعاده للكونفوشيوسية، أيضا ليوضح أن الصراع القائم هو صراع بين الإسلام والغرب فقط وحمَّل في ذلك الغرب مسؤولية تحقيق حسن الجوار مع الإسلام١٨

وقد أكدت الإيكومينيست في تقديمها لمقال بيدهام إلى العديد من المسائل منها أن العداء الذي يحمله المسلمون للغرب ليس عداء عنصريا، وإنما هو خلاصة ورد فعل مشروع لموجة استعمارية استنزفت خيراته وثرواته الفكرية والمادية، وأن التكنولوجيات الحديثة للاتصال والمعلوماتية ستلعب في الأخير الدور الكبير في تفعيل السيطرة الغربية.١٩

وكما ورد في الإيكومينيست فإن هنتنغتون هو من هيأ الإطار الفكري الذي مهد للخوف من مواجهة بين الإسلام والغرب ومقاله المعنون بـ(صدام الحضارات)يهدف إلى توضيح حقيقة الصراع بين الوحدات الأكبر والأوسع لم يتلاش بعد وما يقصده من الوحدات هو الحضارات والثقافات العامة لأجل ذلك يسميه صراع العمالقة.٢٠

وقد تعدى مفهوم العولمة من الجانب الاقتصادي والسياسي إلى الجانب التعليمي والثقافي والإعلامي أو ما يدعى بعالمية الأدب أو الثقافة الشاملة أو القرية الصغيرة أو المجتمع الكوني(الكوزموبوليتي) الذي يكمن وراء إنتشار الثقافات والتداخل الحضاري بين الشعوب٢١؛ وفي هذا الصدد أضحت المعلوماتية والإنترنيت والتكنولوجيات الحديثة أهم ما تقوم عليه العولمة الجامحة حيث ازدادت السوق العالمية لتغذية المعلوماتية وبلغت قمة المعلوماتية نسبة جد عالية مما سهل عمليات التوغل الفكري الثقافي.

والملاحظ أن هنالك العديد من التطورات والمظاهر ضمن الساحة الدولية اليوم التي هي قائمة على مسارات ثلاث.

١/ المسار الأول: سيطرة النظام الرأسمالي كقوة جبارة وسيطرته على كل العالم خاصة بعد زوال الثنائية القطبية .

٢/ المسار الثاني: الثورة المعلوماتية والتكنولوجية الواسعة والتي تقتلع المقومات الأساسية.

٣/المسار الثالث: الهيمنة الأمريكية على كل الجوانب الحيوية الإقتصادية والسياسة والثقافية، ولقيت بذلك تكهنات فوكوياما فرانسيس حول نهاية التاريخ End of history إنتشارا حينما أدلى بها صائفة ١٩٨٩ وتوالت الحلقات الأخرى لمسلسله نهاية الوطنية، نهاية الدولة، نهاية القومية، نهاية التاريخ (تاريخ كل أمة لتساوي اللاتاريخية الأمريكية مع اللاتاريخية التي سلبت العولمة منها تاريخها).٢٢

وفي نظر الدكتور حسن حنفي أن العولمة بذلك كلمة حق أريد بها باطل وما دعوات الديمقراطية الغربية وحقوق الأقليات وحقوق الإنسان وحرية المرأة إلا شعارات رنانة ما تُظهِره على عكس ما تُضمِره، ويقول محمد عابد

الجابري في صدد التخوف من التاريخ الموجود لدى الحضارات الأخرى ما مفاده «إن الولايات المتحدة الأمريكية من أكثر البلدان التي تعيش هاجس الهوية، لقد زرت هذا البلد قبل سنتين في إطار ما سمي بـ«الحوار العربي الأمريكي «كنت واحدا من أعضاء وفد عربي يمثل الأقطار العربية، كانت لنا اتصالات ومحادثات واسعة وغنية بجهات مختلفة الجامعية وغير الجامعية من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي من سياتل شمالا إلى الحدود المكسيكية جنوبا وقد لاحظت في جميع هذه المناطق أن لفظ (تراث) يثير عندهم شجونا وأن كثيرا منهم إن لم يكونوا جميعا مسكونين بهاجس إبراز شيء اسمه التراث الأمريكي».٢٣

ومن سبل المواجهة الخروج عن الثقافة الإستهلاكية Consummer Culture التي تجعل من الإنسان مستهلكا لا منتجا ينتظر ما يجود به الغرب من سلع جاهزة ومصنعة بل تجعله يتباهى بما لا ينتجه حيث أنه القادر على استهلاك ما لا يصنعه، وهذا ما يؤيد أن الثقافة الاستهلاكية وتعميمها تعد أحد أهم السبل للهيمنة على الشعوب ولتحقيق التدويل السلعي.

وفي مقابل ذلك نستذكر قول مالك بن نبي إزاء إشكالية القابلية للاستعمارColonisabilite حيث أن الدور الذاتي هو الفيصل مهما كانت العوامل الخارجية، فالمواجهة تنطلق من عدم القابلية للعولمة بنفس صورة عدم القابلية للاستعمار، مما يعني أن العولمة أو التغريب و الاستعمار تجد مكانها بيننا بدرجة الضعف الذي نحوزه في ذواتنا، والأمر ذاته ينطبق على اللغة إذ نستشعر بنوع من التميز إذا تكلمنا بلغة غيرنا٢٤.

ونحن ندرك بأن الإسلام بسموه وعلو شأنه تمكن من تأسيس قنوات للتفاعل الإيجابي وللتأثير في ذات الوقت بطريق لا إكراه ولا غلو فيه، وفي ذلك يقول الأستاذ الباحث أحمد شهاب (إن جزءا مهما في التخلف الحضاري الذي أصاب المسلمين يرجع إلى انحراف التفكير لديهم، لقد أدى الابتعاد عن روح الدين وحقائقه الواضحة إلى خلق أجيال تؤمن بالإسلام المظهري بينما تعيش الارتباك والتردد في الداخل وهو ساهم في تأجيج حركة الصراع الداخلي في المجتمع الإسلامي كما بالغ في تصوير قوة الآخر الأمر الذي سهل عملية اختراق جسد الأمة). ٢٥

ولكن الواضح وما يمكن أن يخلص إليه كل مسلم أن يستشعر في ذاته روح المسؤولية وأن يعمل جاهدا على أن يؤدِّي ما هو مُناط به، حتى يعكس صورة الإنسان الراشد المسلم المتحضر في حركاته وسكناته، وأن يترك بعد رحيله ما يعكس الإيجابية الواجبة على كل إنسان مسلم متحضر وكما يقول الرافعي إذا لم تزد شيئا على الدنيا صِرت زائدا عليها، فمن لم يكن مفيدا في حياته كان بطن الأرض خير له من ظهرها.

الفرع الثاني: الثورة اللغوية

نجد أنفسنا اليوم في ثورة لغوية حيث تأثرت حياة الأفراد باتساع دائرة الاتصالات وما نحن إلا في بداية تحول في وظائف اللغة بالنسبة للإنسانية.

وقد تحولت المجتمعات التي لم يكن يقرأ ويكتب فيها إلا القليل إلى المجتمعات لا يعجز فيها عن ذلك إلا القليل والأمن في مجتمع كمجتمعنا هذا صائر بسرعة إلى أن يصبح شذوذاً اجتماعيا مثله مثل الرجل الذي لا يستطيع العمل أو القتال في المجتمعات البدائية، ويرى المختصون أن السلوك الصادر عن الأطفال المنحرفين والمعادي للمجتمع إنما هو تعبير عن التوتر العاطفي الناجم عن تأخرهم اللغوي في المدرسة.٢٦

وإذا كان الناس يشتكون من فساد البيئة المهدد للكرة الأرضية فإن هؤلاء ذاتهم لهم آثار سلبية على اللغة التي هي أداة تواصلية حيث كان من الواجب عليه أن يتولى حمايتها وصونها لكنه أبى ذلك وأدخل عليها ما ليس منها وأزاح عنها حلتها التي كانت عليها .

واللغة العربية وهي لغة عالمية أسهمت في بناء الحضارة الإنسانية للعرب وللغرب على حد سواء، وبالتالي ألم يحن الوقت لنُعيد لهذه اللغة مجدها التليد وأن نرفع من قيمتها التي كانت، ويجب الرفع من مستوى الخطاب بعد وصف المدفعين عن القضية اللغوية بأنهم دعاة تخلف وانغلاق .

وبالنظر في أعمال السلف نجدهم قد سادوا الأمم بهذه اللغة،وما عجزوا عن تبليغ ومقصود ثم إن اللغة العربية أمست مسألة في غاية الأهمية خاصة بعدما طمست حقيقتها من طرف من جعلوها قاربا وسط أمواج عاتي

وجعلوا لها ولهم أعداء بالمجان، مما جعل الإنسان العربي في أزمة من أشد الأزمات التي تتعلق بأقدس ما في الإنسان وهو الفكر٢٧.

ثم إن الحديث عن الأمن الفكري واللغة يجعلنا نتحدث عن الغزو الثقافي الوافد إلينا من الغرب وبلغة الغرب وبفكر العرب مما جعل هنالك هيمنة ثقافية فكرية ما جعل النخبة لا تفتي مجتمعاتها إلا بلغة الآخر – لغة أجنبية –ولا ضير في تعلم أو الاستفادة من الغرب أو لغاتهم « ومن تعلم لغة قوم أمن شرهم».

٠١ / انحطاط العرب وخيانة اللغة :

تخلفنا انطلق من الفترة التي خذلنا فيها لغتنا حيث لم نبقي منها سوى على رموز للتواصل الاجتماعي البيئي دون جعلها أداة للعلم والبحث مما أخذلنا وجعلنا نخون لغتنا خاصة إذا أدركنا بأن اللغة ليست أداة للاتصال بل هي أداة تواصل تنطوي على قدر كبير من القيم الاجتماعية والتصرفات والأقوال التي تعبر بها عن مشاعرنا٢٨، مما جعلنا نعتمد على الحديث بلغات الغير لعله يحررنا من عقدة التخلف والخذلان .

٠٢ / الاغتراب اللغوي، بين الانعتاق والاعتناق:

تشكل الهوية اللغوية في المراحل الأولى للطفل بتدخل دور الأسرة والعائلة والمجتمع، واللغة حبل يشد الأفراد فيما بينهم وثقافة كال أمة كامنة في لغتها وفي إبداعاتها ومعاجمها.٢٩

ويكون للأسرة بدرجة أولى الدور الكبير في تحبيب اللغة العربية للطفل وإعطائها حقوقها وتفعيلها خاصة في زمن العولمة.

ولا يتحقق الأمن في ظل الاعتداء على اللسان الوطني فهو من الحقوق التي كفلها الشرع والقانون وأي تعدي على اللغة هو جناية على الإنسان، والأمن يحصل دوما بحفظ الحقوق ولا يمكن تحقق الأمن الفكري واللغوي دون حماية حقوق اللغة.٣٠

ثم إن تحقق الأمن الفكري يتحقق بالانعتاق من الفكر الغربي الوافد والذي يعكس الأبعاد الحقيقية للعولمة، ثم بعد ذلك لا بد من اعتناقنا للمبادئ التي تخلينا عنها لغيرنا، فاستفادوا من حسناتنا، وأخذنا عنهم مساوئ الأمور كلها، لنصل في الأخير إلى الاقتناع بما نقوم به.

٠٣ / النهضة باللغة :

شتان بين أمة يقيدها التكاسل والتماطل وتترقب الفرج من السماء وبين أمة تعمل وتجتهد وهذا ما حررها وأداها إلى تغيير أوضاعها، وهذا بعد التحرر الكامل من كل مظاهر الجمود، وفي هذا دوما نتساءل لماذا تخلفت البلاد العربية تحديدا والأمة المسلمة في عمومها بعدها كانت هي المعلم لأوروبا وآسيا برمتها.

ومن خلال كتاب (الأنية والأصالة) لمولود قاسم-مفكر جزائري- كان قد أشار إلى الحضارة واللغة طارحا إشكالية تتمحور حول» كيف تكون أبناء عصرنا مع البقاء على أديم مصرنا، دون أن تصبح نسخة غيرنا؟ حيث أشار إلى هاجس النهضة اللغوية من خلال التركيز على الهوية الوطنية/ الإسلامية والعربية دون إنكار علاقتنا مع الآخر، حيث أن الشخص الذي لا يملك الهوية شخص غير موجود، والهوية بذلك هي الذاتية وما يدخل في عناصر تكوينها الروحي والنفسي والاجتماعي، وتتمثل في الاختصاص بالعقيدة الإسلامية واللغة العربية والوعي بالمنهج، وتطوير آليات التربية والتعليم وحماية التراث توجيه الإعلام توجيها وطنيا بناءاً، وتدخل في باب الهوية الاجتماعية الممثلة في:

× الشخصية الوطنية ـــ المقومات الذاتية

× الصمود في وجه الغزو ـــ مواجهة الإكراهات المعاصرة٣١.

وفي دلالة الأنية والمعصرة التي استعملها مولود قاسم كعنوان لكتابه نجد اصطلاح الآنية التي استخدمها ابن سينا ويقصد من ورائها الشخصية وهي تضم اللغة ،الدين،الوطنية، واستعمالها أيضا يوهان غوتليب فيخته J.G.Fiche صاحب فلسفة الآنية أو الذاتية أو الانتماء الوطني.

وبعد أن كانت اللغة العربية سبيلا لنهضة الغرب وقعنا نحن مرة أخرى، حيث ترجمت الأعمال العربية الضخمة والتي منها رسائل جابر بن حيان، كتاب الحساب والمقابلة للخوارزمي، كتاب الحاوي الصناعة الطلب للرازي، كامل الصناعة الطبية لعلي بن العباس ، البصريات لابن الهيثم ، كتاب الأدوية

البسيطة لابن الوقد، التصريف للزهراوي، القانون لابن سينا، نزهة الميثاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي، المفردات لابن البيطار وغيرها٣٢.

والنهضة بذلك لا تعني الاندماج في حضارة الآخر، كما لا تعني العيش في التاريخانية فألمانيا ثم تدميرها (ماديا) عن آخرها لكنها عاودت النهوض أكثر مما سبق، وبالتالي لماذا تم تدمير كليا ألمانيا ونهضت ولم تستطع الأمة العربية بعد النهوض.

٤ / سؤال الهوية :

قد تتعدى الأسئلة عن العربي وتتعدى الأجوبة إزاء ذلك، ولكن في الأخير هو سؤال عن الهوية، والهوية وجود وماهية، وفي المجال البشري على الأقل الوجود سابق للماهية دوما، الشيء الذي يعني أن الماهية ليست معطى نهائيا بل هي شيء يتشكل، شيء بصير .

وهل نقول بالمقارن أن العرب، أيضا هم حضارة وتاريخ ومشروع كيان موحد رغم أنهم لم يخطو خطوات إزاء ذلك، وبالتالي فإن وجود العربي كهوية هوية ذلك أعوز وأفقر من وجود الأوروبي. ٣٣

ومن أوجه المفارقة بين مشروع الوحدة العربية ومشروع الحدة الأوربية أن الأولى تؤسسها هذه اللغة والثقافة، بينما تعتمد الثانية على المال والمصالح المشتركة أساسا.

وكلنا يدرك بأن الهوية الثقافية هي حجر الزاوية في تكوين الأمم لأنها نتيجة تراكم تاريخي طويل إذ لا يمكن تحقيق الوحدة الثقافية بمجرد صدور قرار سياسي بخلاف الوحدة الاقتصادية.

والوحدة الثقافية بذلك تحتاج للإرادة و تحتاج إلى فواعل أخرى ذاتية وموضوعية، وهذا ما قد يرجعنا إلى التاريخ السالف حيث أن الوحدة الأوربية قامت عقب التحرر من الإمبراطوريات وآخرها إمبراطورية نابليون وإمبراطورية النمسا .

أما في الأقطار العربية فقد ظهرت فكرة القومية كتعبير في الاستقلال عن الدول العثمانية التي وزعت أقطارها العربية بين انكلترا أو فرنسا، فتحولت وتحللت فكرة القومية إلى حركات وطنية تبحث فقط عن الاستقلال، وهذا استقلالها وجدت المسارات مرسومة من الدول الأوربية الاستعمارية التي زادت قوتها وحدة تسلطها، وحتما لم يكن الاستعمار هو وحده العائق أمام تحقيق الوحدة العربية.٣٤

وسؤال الهوية المطروح أيضا هو أن البعض يعتبر نفسه عربيا بالإسلام، وهذا ما يصح لسكان شمال أفريقيا التي لا ينفك في إدراكها تلازم الإسلام والعروبة ، أما من لم يكونوا مسلمين فهم يعتبرون أنفسهم عربا لغة و ثقافة و تاريخا و أصلا، وهنالك فئة تتقزز من أن توصف بالعروبة .

المبحث الثاني : إدارة أزمات العقل العربي و أمنه الفكري

ما من شك في أن اللغة العربية كانت نبراسا يُضيء أصقاع العالم من خلال كتابات الكثير من العرب و المسلمين، وفي تلك الأثناء كان وصف العربي عنوانا للاجتهاد والعمل والحضارة، وكانت اللغة العربية أجمل حلة يمكن أن يتحلى بها الإنسان فتم الاعتناء باللغة العربية كهدف وأداة للوصول إلى المدارك وشتى العلوم والمعارف الأخرى .

فكان للغة العربية ارتباط وثيق بالعقل العربي حيث استخدمت في الرياضيات والفلك والطب والجغرافيا وشتى العلوم الأخرى. حتى أرجع مفكروا أوروبا وساستها سر النهوض إلى اللغة في حد ذاتها هذه اللغة التي تحوي الفكر، المعتقد، والتاريخ...

ولكن مافتئ لهذا أن يتم حيث تم استهجان اللغة العربية وإقصاؤها لذاتها وإبعادها كأداة للبحث العلمي المتميز، مما جعل الآخر يرى بأن هذه اللغة لا تستوعب المعارف المستحدثة وأنها انعكاس للعقل العربي الذي يتسم بالتحجر والتطرف.

و نجد بذلك الارتباط الوثيق بين العقل العربي وبين اللغة المستخدمة حيث تجد العامة أن من يتحدث لغة أخرى يتسم بنوع من التطور والنهوض ولو كان إنسانا بدائيا وأن من ينطق بالعربية لا يرقى أن يصل إلى درجة هي الأدنى عند الأول.

مما جعلنا نقر بالتلازم بين اللغة العربية والتخلف حتى عند مثقفينا الذين يتقنوا ترديد اصطلاحات أجنبية إما جهلا وإما تفاخرا أو لكونهم أضحوا أسرى الاستقدام التكنولوجي الغربي.

وحتما نجد العقل العربي في كل هذا يعاني العديد من الأزمات أزمة

اللغة، أزمة الهوية والانتماء، أزمة الأهداف،كل هذا يوحي بوجود أزمة أمن فكري.

الفرع الأول: اللغة العربية بين التأثير والتأثر العولمي

بعدما أن كانت العربية لغة للعلوم وللأبحاث والاختراعات وسبيلا للنهضة الأوروبية أضحت متأثرة بالعديد من الدواخل التي تؤثر فيها كأداة وتؤثر فيها كأداة، كما تؤثر في العقل العربي ذاته.

ففي كتاب زيغريد هونكا « شمس العرب تسطع على الغرب» أوضحت الكاتبة أن أولى مظاهر الانتعاش الأوروبي كان بفضل اللغة العربية التي كانت لفترات طويلة من الزمن أداة للعلم وللاختراع والبحث، ولكن الذي نراه اليوم إفراغنا نحن العرب من محتوانا إذ أضحينا نعزف وربما نخجل من الاستعمال السليم للغة العربية ، على الأقل لأجل استقامة ألسنتنا حيث نجد استخداما أقرب للرموز منه للغة فالجملة الواحدة تضم كلمة عربية وأخرى أجنبية وأخرى خليط بين الاثنين وأخرى دارجة لا أصل لها ...مما يعكس هروبا من الانتماء .

بالإضافة إلى التأثير التكنولوجي على اللغة العربية وهذا بوجود تدفق معلوماتي ومعرفي لا يجعلنا نفهم أشياء إلا بلغة مخترعيها أو مكتشفيها إذ نجد كلمات ومفردات لا نفهمها إذا نطقناها بالعربية ونفهمها إذا أوردناها باللغة الأجنبية ليس لأننا لم نكن سببا في اختراعها واكتشافها فحسب، بل لأننا نشعر بالتميز والتمايز فيما بيننا إذا نطقنا بكلمات لا يفهمها بعضنا، خاصة إذا أدركنا ما للوافد العولمي من تأثير على اللغة العربية .

إن الحديث عن إدارة أزمات الهوية وتحقيق الأمن الفكري العربي حتما يرجعنا إلى أداة التفكير في حد ذاته، حيث أن العقل العربي يعاني من مشكلة عويصة جدا وهي التيه بين العديد من الأسئلة الشائكة.

هل الانتماء هو للعروبة أم الانتماء للإسلام ؟

هل أن اللغة العربية هي محدد تفكير العقل العربي أم أنها مجرد أداة للتواصل ؟

هل التواصل باللغة العربية هو مجرد تواصل داخلي فقط ولما لا يكون سبيلا للتواصل مع الآخر كإثبات على الأقل لوجود الأنا؟

هل التخلف الذي تعاني منه الأمة العربية هو بسبب التفكير العربي الذي مرده لغتنا العربية أم أن هنالك أسباب أخرى؟

هذه الأسئلة وغيرها جعلت من الإنسان العربي يتراوح بين أمرين أولهما ضرورة الإقرار بالانتماء إلى أصل ومصدر وثانيهما ضرورة الشعور بالتفوق – وهو أمر فطري-.

الفرع الثاني: الأمن الفكري والحفاظ على اللغة العربية

إذا ما تم الحفاظ على اللغة العربية من لدن كل عربي مسلم فحتما سيتحقق لديه معنى الانتماء إلى البعد الحضاري الذي يجعله يمتاز عن الآخر الذي لا تاريخ له فأمريكا مثلا تاريخها أقصى ما يصل إليه هو إعلان فرجينيا لسنة ١٧٧٦ كوثيقة تؤسس لإعلان أمريكا كدولة مستقلة.

لأن هنالك إشكالية هامة جدا تتمثل فيمن يتولى ضمن كيان الدولة أو المجتمع مهمة تحقيق الأمن الفكري؟ قد تكون الإجابة الأسرة والمدرسة والمسجد وغيرها، هذه الهيئات أو ربما مؤسسات الدولة الرسمية، ولكن ألا يعد ذلك مصادرة للحريات وفيما يود الإنسان بعقله أن يعتنقه أولا؟ وبالتالي فإن الأمن الفكري لا يكون متوقفا على غربلة الوافد إلينا فقط بل التحقق بمعطى آخر وهو تكوين عقل عربي هو من يتولى التمييز بذاته، هذا ما يحقق معاني المراجحة المبنية على تحقيق الهدف –وهو الأمن الفكري – بأحسن أداء وبأقل تكلفة وفي أقل وقت.

وبهذا نجد الدور الذي تؤديه اللغة العربية في صناعة العقل العربي وفي إيجاد الوصلة بين الإنسان العربي ومقوماته وموروثه الحضاري.

الخاتمة:

مما سبق نجد بأن هنالك ارتباطا وثيقا بين اللغة العربية والعقل العربي بل أن هنالك تلازم بينهما، وتسهم اللغة العربية في إعطاء الهوية بعدها الحقيقي، إذ لا يمكن الحديث عن الحضارة أو الهوية أو الموروث الفكري بدون الانطلاق من اللغة التي تعد السبيل الأوحد للاتصال البيني والتواصل بين الماضي والمستقبل، وتكون اللغة العربية أداة لتحقيق الأمن الفكري

العربي المنشود ولأجل تحقيق النهضة العربية، ومن كل ما سبق تناوله ارتأى لنا إبداء بعض النتائج والمقترحات:

- ضرورة الاهتمام الأسري باللغة العربية وبإسهامها في النهضة العربية وهذا لأجل الخروج من عقدة التخلف التي بقي العديد من الناس أسرى لها، وأنها أي العربية أداة لتحقيق أمننا الفكري.
- ضرورة الاهتمام المؤسسي باللغة العربية من خلال تحميل المسؤولية للمؤسسات التعليمية من الطور الإعدادي إلى الجامعي إلى كل المؤسسات الحكومية والجمعوية الأخرى.
- ضرورة التحضير لمشروع اعتماد العربية كلغة علمية في شتى التخصصات التقنية والمعرفية المعاصرة، بما يؤكد مقدرة لغتنا على استيعاب أطياف المعرفة المختلفة.
- أولوية حرص المؤسسات الجامعية على تدويل ترجمة الأعمال الصادرة باللغة العربية حتى يكون للغة العربية دور المؤثر وليس المتأثر فقط.
- دعم وتحفيز الأعمال والجهود الجادة والمخلصة التي تعمل على النهوض باللغة العربية وآدابها، والوقوف بوجه الدعوات المناهضة للغة العربية والمنادية بإقصائها.
- صياغة استراتيجيات متكاملة لخطاب سياسي لغوي بديل ولممارسة سياسية لغوية بديلة بغية تجاوز أزمة العربية الراهنة ولتمكين متعلم اللغة العربية من لعب دور أكثر فعالية في عملية البناء الحضاري لإنسان الحضارة.
- مع أولوية تحقيق متطلبات الأمن الفكري الذي يعد لقاحا واقيا لشبابنا من المضار التي تنجم عن المد المعلوماتي العولمي، وحتى تصبح اللغة العربية في حد ذاتها أداة لإدارة الأزمات المعرفية في مؤسساتنا الجامعية التي تضم نخبا علمية موكول إليها الاضطلاع بمهمة تكوين الأجيال تكوينا متكاملا يضمن لهم التمييز بين الضار والنافع بين القبيح والمليح.

الهوامش

١ عبد الله إبراهيم الطريف، الأمن الفكري البعد الاستراتيجي للأمن الوطني، ندوة علمية بجامعة الأمير نايف للعلوم الأمنية،١٤٠٨، ص ٠٤.

٢ نيازي حتاتة، إسهام الجمهور في مكافحة الجريمة، مجلة الأمن العام المصرية، العدد ٥٧، ص ١٦١.

٣ إبراهيم عيد نايل، جرائم الإرهاب، السياسة الجنائية في مجابهة الإرهاب في القانونين المصري والفرنسي، دار النهضة العربية ، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٠٥ .

٤ مراد كريم، المهنة المكتبية في ظل مجتمع المعلومات، مقال بمجلة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر دورة أكاديمية محكمة ربيع الثاني،١٤٢٨، ماي ٢٠٠٧، العدد ٢٣، ص ٣٠٠.

٥ جون جوزيف، اللغة والهوية، سلسلة عالم المعرفة، أغسطس، الكويت، ٢٠٠٧، ص٠٤.

٦ نفس المرجع، ص ٢٢.

٧ أجمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٩، ص ٢٠٦.

٨ محمد عمارة، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، نهضة مصر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، فبراير، ص ٦.

٩ دوني كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٢، ص ٨٧،٩٩.

١٠ عبد الرحمن بن علي الغامدي، قيم المواطنة لدى طلاب الثانوية وعلاقتها بالأمن الفكري، جامعة نايف للعلوم الامنية، ط٠١،الرياض ٢٠١٠، ص ١٢٧.

١١ نفس المرجع، ص ١٢٨.

١٢ نفس المرجع، ص ١٣٠.

١٣ فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتمة البشر، ترجمة حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة، ١٩٩٢ص ٦٢.

١٤ صموئيل هانتغتون، صدام الحضارات، ترجمة مركز الدراسات الإستراتجية، بيروت، ١٩٩٥، ص ٣٠.

١٥ جودت سعيد، عبد الواحد علواني، الإسلام والغرب والديمقراطية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ص ٣٣.

١٦ نفس المرجع، ص٣٢.

١٧ Brian Beedham .Islam and the West; the Economist August 6th.١٩٩٤, ١٩٩٤.٣٢, p١٥.

١٨ أو مايعبر عنها بيدهام بالحضارة

الصفراء.

١٩ نفس المرجع، ص ٥٢.

٢٠ ولكن الملاحظ أن خوض بيدهام في العديد من المسائل الفقهية البحتة كالصدقة والزكاة أضعف مقالته إلى حد بعيد.

٢١ ميشيل كلوغ، عولمة أمريكا، مجلة الثقافة العالمية، الكويت، نوفمبر، ٢٠٠٠.

٢٢ بركات محمد مراد، ظاهرة العولمة، رؤية نقدية ، المرجع السابق، ص ٢٢

٢٣ محمد عابد الجابري، العولمة وهاجس الهوية في الغرب، الإتحاد، بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٩٩.

٢٤ مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار لفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٩ ، ص٣١ .

٢٥ أحمد شهاب، نحو تناول علمي لمفهوم العولمة، مجلة الكلمة، العدد ٢٥،١٩٩٨، ص ٦٧ .

- م.م لويس، ترجمة تمام حسان، اللغة في المجتمع،عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٣ ص ١٥,٢٦

- صالح بالعيد، الأمن اللغوي، دار هومة ، الجزائر ٢٠١٠، ص ١٠,٢٧

- صالح بالعيد، المرجع السابق، ص ١٦٢٨

- نفس المرجع.٢٩

٣٠- فواز محمد الراشد، مرئيات التخطيط اللغوي ، مجلة مجمع اللغة العربية، الأردن ١٩٩٦، العدد ٥١، ص ١٢٥

- صالح بلعيد، المرجع السابق، ص ١٠٧,٣١

٣٢ - رضوان جودت زيادة، النهضة المستحيلة ، قراءة المستقبل بعيون الماضي، مجلة الاجتهاد، بيروت ٢٠٠٢، العدد ٥٤، ص ٣٢٢.

٣٣- محمد عابد الجابري، مسألة الهوية ، العروبة والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٥، ص ٥

- محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص ١٣٣٤